الوجه الرابع:

قصد ... فيقال قد قدمنا أن مثل هذه الأفعال المحكية من وضع اليد والخد على القبر أو المنبر
والوجه أو أخذ التراب فوضعه على العينين يجوز أن يكون مظهراً من مظاهر الحب ومجلى من مجالي الشوق
ويجوز أن يكون هؤلاء السلف الذين فعلوا ذلك إنما لم يقصدوا ما يدعيه المخالفون من التبرك
وقصد التبرك والتعبد والتوسل إلى الله بهذا الوضع واللمس ويجوز أن يكونوا لم
قد أرادوا بفعلهم هذه ما يريده محب وقف على أطلال محبوبه وعلى آثاره ومخلفاته
فراح يقبل هنا ويتمسح بها أو يقف بهذا بدون أن يقصد تبركا ولا تعبدا ولا استشفاء بهذه
الأشياء التي يقصدها المخالفون والتي يقصدها هؤلاء الضالون العاكفون على الأجداث من العوام وأشباه
العوام ويجوز أن يكونوا إنما فعلوا ما فعلوا هنا الذي فعلوا بباعث الحب والشوق لا بباعث الرغبة
والطلب فالمحبون كما قدمنا قد مرات يفعلون مثل هذه الأفعال ويفعلون أكثر منها وهم لا يريدون أن
ينالوا شيئا بذلك وهم لا يعتقدون بمن فعلوا بآثارهم هذه الفعلات عقيدة تأويل وهم يعلمون
أنهم لا يسمعون ولا يعقلون ولا ينفعون ولا يضرون لو علموا أو سمعوا. وليس بمنكر أن أصحاب النبي
صلى الله عليه وسلم كانوا يحبون نبيهم أبلغ الحب الذي يجوز أن يكون بين البشر والعظمة وإيثاره
فليس بمنكر إذن أن يكون ما في هذه الروايات من مظاهر حبهم لا من مظاهر اعتقادهم في التبرك
والتقبيل بهذه الأشياء. وهذا لا ريب فيه بحثا وعلما فالروايات تقع لا تمنعه ولا
تأباه والعادة لا تمنعه ولا تأباه ولا شيء آخر يمنعه أو يأباه فلا نزاع في احتمال الروايات
أن يكون هو المراد الصحيح. فإن قيل: ماذا تستفيدون من هذا الاحتمال والتفسير وماذا
عسى أن يفيد بحثكم ومسألتكم هذه؟ فإن المطلوب هنا التدليل على جواز تقبيل القبور
والآثار وجواز التمسح بها ووضع أجزاء البدن عليها. فالمطلوب هو هذا
ولكم القصد ما يكون فإن إنكار القصد واحتمال أن يكون هذا أو هذا لا يثبت لنا حكم الجواز
والامتناع.. إن قيل هذا قيل في الجواب: هنالك فرق لا ينكر بين فعل هذه الأمور المذكورة حبا وشوقا
وبين فعلها تعبدا وطلبا للبركات والخيرات والحاجات. فإن الأول خال من معاني العبادة
والتأله الخالية من معاني الطلب والالتماس والخطاب ومحاولة الإسماع والإعلان والثاني مشتمل
على ضروب ذلك وأنواعه ولهذا فإننا نجد ويجد الناس جميعا فرقا عظيما بينا بين
تقبيل قبر الأبوين وقبور الأولاد والأحباب وبينهم والتمسح بها وبين
تقبيل الأصنام والأوثان والجمادات المعبودة من دون الله. بل نجد فرقا عظيما لا
يخفى على أحد بين تقبيل قبور الآباء والأقارب وتقبيل صورهم ومخلفاتهم وبين
تقبيل قبور الأنبياء والمشايخ والصالحين وتقبيل صورهم ومخلفاتهم فتقبيل صورة المسيح وصورة
أمه وتقبيل الصليب عند من يزعمون أنه صلب عليه أو صليب ليس مثل تقبيل صورة
الأب أو الأم أو الحبيب. ولكن لعل أن هذا الحكم والتفريق لا يكون صحيحا إلا إذا كان تقبيل
هذه الأشياء المتصلة بالأنبياء والصالحين أو المزعومة الاتصال بهم ليست ظنية للحب والشوق
الحامل صاحبه على أن يقبل ويتمسح حبا وشوقا. وهذا هو المفروض المعقول ولا يخفى
على أن ما بين الذين يذهبون اليوم وقبل اليوم إلى قبور المشايخ والأنبياء والصالحين فيطوفون بها
ويقفون عليها ويلمسونها ويلثمونها ويسألون عقائدهم وحوائجهم قبل من ذهبوا إلى قبور أصدقائهم
وأحبابهم وأقربائهم فوقفوا عليها ونثروا الدموع والعبرات فوقها ووضعوا شفاههم على عتباتها وأبوابها
ولهنا أيضا نجد فرقا بين من راح يخاطب قريبا أو حبيبا - ويعني هنا الأحباب الذين بينه
وبينه حجب لا تتعدى النداء نداء طلب والتماس - وبين من ذهب يخاطب ميتا معظما ويدعوه
ويناديه. والفرق راجع إلى الفرق الموجود بين ما استقر في أنفس المخاطبين [illegible]
والد تلبيه. وهذا الفرق هو سبب الفرق الذي نجده بين من ذهبوا إلى قبور عظماء الدنيا وأبطالها
تماثيلهم ووقفوا بها وبين من ذهبوا إلى مقامات المشايخ المعظمين وأضرحتهم فوقفوا بها
فأذاقوا فوق العبرات. فإن الذين يذهبون إلى أضرحة رجال الدنيا وعظمائها لا يعتقدون
فيهم شيئا من هذه العقائد المعتقدة في المشايخ المعظمين وفي قبورهم. فالفرق إذن لا يخفى بين
هذه الأفعال حين تكون أثرا من آثار الحب والشوق أو مدفوعة بالحب والشوق وبين فعلها تبركا بها
والتعبد والطلب والتقرب إلى الموتى والرجاء والاستغاثة [illegible] والطلب والالتماس